رهائنُ الصراعاتِ الخارجيةِ في الأندلسِ في عصرِ الإمارةِ الأموية

أولاً عهدُ الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨- ١٧٢هـ / ٧٥٥- ٧٨٧م)

نجح عبد الرحمن الداخل من انتزاع النصر من خصومه المحليين وتأسيس إمارته سنة (١٣٨هـ / ٧٥٥م)، ودانت له الأندلس بأسرها بعد أن لقي فيها حروباً وقاسي خطوباً[٢٢٣] فكان الثمن باهظاً إذ أن انشغاله في حروبه الداخلية انعكس بشكل خاص على سياسته الخارجية تجاه نصارى الشمال الإسباني فلقيت الإهمال، مما أتاح المجال أمام مملكة إشتريش وجليقية أخطر التجمعات النصرانية المعادية للمسلمين آنذاك أن تنمو وتزداد توسعاً على حساب حكومة قرطبة التي أصبحت مضطرة إلى الاعتماد على إمكانياتها الداخلية المحدودة في مواجهة الخطر الزاحف إليها من الشمال[٢٢٤].

ولم تتركِ الفتنُ وحركاتُ التمرد الداخلية الوقتَ الكافي لعبد الرحمن الداخل لمقارعة نصارى الشمال فوجد فرويلا الأول (١٤١-١٥٨هـ/٧٥٨-٧٧٤م) ملك جليقية الفرصة مواتية لانشغال الأمير بقمع ثورة يوسف الفهري (١٤١هـ/٧٥٨م) [٢٢٥]، وأنه لا يستطيع القيام

(٢٢٣) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس،ص ٥٠، ٥١.
(٢٢٤) كمال السيد: المولدون، ص ٥٧.
(٢٢٥) مجهول: أخبار مجموعة، ص٨٨- ٩١؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٣، ص ٣٣٩؛ حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص٦٨٨-٦٩٠.

بأي عمل عسكري خارج حدود إمارته، فعبر نهر دويرة وهاجم الثغور الإسلامية واستولى على أراضي شاسعةٍ، فملك مدينة لك وبرتغال وسمورة وشقوبية وضمها إلى أملاكه سنة (١٤٢هـ/٧٥٩م)، فصارت جزءاً من مملكة جليقية، حتى استعادها المسلمون بعد ذلك بنحو قرنين في عهد الحاجب المنصور(٢٢٦).

وهكذا سقطت هذه الأراضي في عصر أمير يعد من أقوي وأصلب أمراء البيت الأموي في الأندلس، ورغم الانتصارات الحاسمة التي حققها فرويلا الأول إلا أنه اضطر لعقد معاهدة سلام (٢٢٧) مع المسلمين مدتها خمس سنوات تبدأ من سنة (١٤٢هـ/٧٥٩م) تعهد خلالها بدفع مبالغ كبيرة للحكومة الإسلامية (٢٢٨)، وذلك حتى يتفرغ لقمع ثورات الأشراف الداخلية التي حفل بها عصره (٢٢٩).

وبدأ الأميرُ عبد الرحمن الداخل يتحين الفرص لكي يدفع خطر نصارى الشمال، ففي سنة (١٤٨ هـ /٧٦٥م) أرسل بعض قواده إلى الشمال على رأس قوةٍ كبيرةٍ، فسارت حتى حدود جليقية، واشتبكت مع النصارى والعصاة في عدة مواقع، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى (٢٣٠)

وفي سنة (١٥٠هـ/٧٦٨م) وجه الأمير عبد الرحمن الداخل حملة بقيادة مولاه بدر إلى ألبة والقلاع شرقي ليون وحارب أهلها وانتصر عليهم وأخذ منهم الجزية وقبض على كثيرٍ من

(٢٢٦) ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ١٥٦؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص ٣٣٠؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ٢١٥.
(٢٢٧) للإطلاع على كتاب الصلح: أنظر ملاحق الرسالة، ص٣١٥
(٢٢٨) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٧، ص ٢٥٠.
(٢٢٩) عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ٢١٥.
(٢٣٠) عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ٢١٥، ٢١٦.

العصاة في تلك الأنحاء (٢٣١)، وخلال رحلة العودة جلب بدر معه إلى قرطبة كل من شك في إخلاصه وولائه من زعماء الثغور (٢٣٢).

ولم تحدثنا الروايات التاريخية عن أي اشتباكات أخرى بين الطرفين حتى عام (١٦٤ هـ/٧٨٠م) إذ أجبرت الأوضاع الداخلية كلا الجانبين على العيش بسلام، باستثناء ما انفردت به رواية نصرانية عن نبأ موقعة عظيمة دارت أحداثها في بونتومو من أعمال جليقية سنة (١٥٧هـ/٧٧٣م)، ودارت الدائرة فيها على المسلمين وقتل منهم على ما تدعيه الرواية أربعة وخمسون ألفا(٢٣٣)، ونفي المؤرخون المحدثون إمكانية حدوث هذه المعركة في هذا الوقت، إذ أن ظروف المسلمين والنصارى لم تكن تسمح بحدوث مثل تلك المواجهة إذ أن عبد الرحمن الداخل كان مشغولاً بالقضاءِ على ثورة شقيا البربري، كما أن فرويلا الأول الذي زعمت الرواية النصرانية أنه قائد القوات النصرانية خلال المعركة كان قد قتل منذ سنة (١٥٠هـ/٧٦٨م) (٢٣٤)

انتهز الداخل فرصة وجوده في الشمال سنة (١٦٤هـ/٧٨٠م) لردع ثوار سرقسطة بعد فشل حملة شارلمان فاخترق أراضي البشكنش (Bacons) (نافار) وخرب بنبلونة

(٢٣١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٥٤؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ٢١٦؛ خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس، ص٨٧.
(٢٣٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٥٤.
(٢٣٣) عبد الله عنان: دولة الأسلام، ج١، ص ٢١٣ ؛ رجب عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، ص١٣١.
(٢٣٤) رجب عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، ص١٣١.

(Pamplona) وقاهرة [٢٣٥] (Calabria) وأجتاح سرطانية (Cardinal) التي أرغم أميرها على تقديم الطاعة وأداء الجزية وأخذ ابنه رهينة [٢٣٦].

ولكن أهل سرطانية لم يلتزموا بالطاعة بعد وفاة الأمير عبد الرحمن الداخل في عهد ابنه هشام الذي هاجمها سنة (١٧٧هـ/٧٩٣م) فقتل رجالها واستباح حريمها وجاس في البلاد شهورا يخرب الحصون [٢٣٧]، ومنذ سنة (١٦٤هـ/٧٨٠م) وحتى وفاة عبد الرحمن الداخل (١٧٢هـ/٧٨٨م) لم يشتبك مع نصارى الشمال لانشغاله في مجابهة التمردات الداخلية [٢٣٨].

شارلمان والرهائن:

لقد كانت الأوضاعُ الداخليةُ في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل سبباً في عدم اهتمامه إلا بصورة هامشية تجاه الفرنجة، السبب الذي شجعهم على مزيدٍ من التوسع في غالة، وأيضا في الأندلس ذاتها، ولعل هذه السياسة المتسمة بالسلبية من قبل الداخل تجاه الفرنجة هي التي جعلت شارلمان ملك الفرنجة بعد ما حققه من انتصارات في أوربا[٢٣٩] أن يفكر في إمكانية

(٢٣٥) قلهرة: (Calahorra) بفتح أوله وثانيه وضم الهاء وتشديد الراء وفتحها مدينة من أعمال تطيلة في شرقي الأندلس ؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٤، ص ٣٩٣.

(٢٣٦) مجهول: أخبار مجموعة، ص١٠٤ ؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ١٥٨ ؛ خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس، ص ٨٨.

(٢٣٧) ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٢٩٧.

(٢٣٨) العذري: نصوص عن الأندلس، ص٢٦؛ ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص ٥٠، ٥١.

(٢٣٩) قام شارلمان بمحاربة اللومبارديين وأخضعهم وتوج نفسه ملكا عليهم، ولقب بملك الفرنج والمبارد، كما خاض حروبا ضد السكسون إستمرت ثلاثين عاما وأخضعهم نهائيا سنة (١٥٨هـ/ ٧٧٤م)، كما أخضع الأفار والدانيين لسلطانه، وقد إتخذت حروب شارلمان طابعا صليبيا، إذ كانت معظم البلاد التي فتحها تدين بالوثنية، فسار على نهج أبيه "بيبين" الذي كان يصحب معه في

القيام بحملات وراء البرنيه، وتحقيق مشروعه الذي كان يسعي إلى تنفيذه وهو إحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأن يمد حدود الدولة الكارولنجية من جهة الجنوب إلى مضى ق جبل طارق(٢٤٠).

ولقد وجد شارلمان الفرصةَ مواتيةً لتحقيق أطماعه، وذلك عندما استعان به سليمان بن يقظان الأعرابي الثائر في برشلونة والحسين بن يحيى الأنصاري والي سرقسطة، وذلك عندما أعلنوا العصيان على عبد الرحمن الداخل وتحالفا على قتاله، وذلك لتحقيق مآربهما وأطماعهما في الحكم (٢٤١). وخصوصاً أنه كان منشغلاً بقمع فتنة شقيا البربري في الجنوب (٢٤٢)،

فأرسل إليهم عبد الرحمن الداخل جيشا بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامي، وذلك سنة (١٥٨هـ/٧٧٥م) فانهزم هذا الجيش وأُسر قائدُه(٢٤٣) ولكن سليمان الأعرابي لم يكتفٍ بهذا النصر المؤقت وذلك لما كان يعلمه من عزم عبد الرحمن الداخل وأنه سوف يعد العدة للانتقام ففكر سليمان الأعرابي بالاستعانة بملك الإفرنج حيث كان على اتصالٍ قديمٍ مع دولةِ الفرنجة، وقد رحل سليمان بصحبة بعض رجاله للقاء شارلمان في ربيع سنة (١٦٠هـ/٧٧٧م) وكان وقتئذ يقيم في مدينة بادربون شمال غرب ألمانيا، بعد أن أنزل الهزيمة بالسكسون وأجبرهم على اعتناق المسيحية(٢٤٤)، وعرض سليمان على شارلمان

جيوشه المبشرين والقساوسة؛ فيشر: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ج١، ص ٩٢؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ج١، ص ٢٠٢؛ عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٢٠١.

(٢٤٠) عبد المجيد نعنعي: الدولة الأموية في الأندلس، ج٢، ص١٦٦.

(٢٤١) العذري: نصوص عن الأندلس، ص ٢٥ ؛ المقري: نفح الطيب، ج٣، ص ٤٨ ؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ١٦٨ ؛ السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص ١٢٨.

(٢٤٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٥٤، ٥٥ ؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ١٦٨.

(٢٤٣) مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٠٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٢٤٦.

(٢٤٤)عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ١٦٩؛محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة، ص ١٣٨.

التحالف معه على قتال عبد الرحمن الداخل(٢٤٥)، وذلك في مقابل تسليمه الولايات الشمالية ولاسيما سرقسطة وتسليمه الأسير ثعلبة بن عبيد الله لكي يكون رهينة عنده لكي يساوم عبد الرحمن الداخل عليه فيما بعد(٢٤٦)، وأعلنوا خضوعهم لملك الفرنج وانضواءهم تحت حمايته(٢٤٧)

ولقد جاءت موافقة شارلمان تنفيذا لسياسته في إسبانيا التي تهدف إلى تأمين حدوده الجنوبية، وتحقيق مشروعه في إحياء الإمبراطورية الرومانية الذي طالما سعي إلى تحقيقه (٢٤٨)

فكانت دوافع شارلمان للهجوم على الأندلس سياسية بحتة، وإن كانت مبطنة بمظهر ديني هدفه حماية النصرانية، وتخليص جليقية من أيدي المسلمين، وفي الحقيقة كان شارلمان يريد تأمين حدوده الجنوبية بالاستيلاء على بعض المدن والقواعد في إسبانيا، بل إنه كان يرمي إلى السيطرة على إسبانيا كلها لو تيسر له ذلك ويدل على هذه السياسة التوسعية، ضخامة الجيش الذي حشده شارلمان لهذه الحملة، وكذلك مهاجمته لبلاد البشكنس، الذين كان قسم منهم من النصارى. ولهذا فلم تكن النزعة الدينية بارزة في هذه الحملة (٢٤٩).

فإننا نجد أن حركة الأعرابي والأنصاري في سرقسطة وطلبهما مساعدة شارلمان سنة (١٦١هـ/٧٧٨م) تنسجم مع مصالح الطرفين: فالأعرابي والأنصاري يرغبان في القضاء

(٢٤٥) عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ١٦٨ ؛ مني حسن محمود: المسلمون في الأندلس، ص ١٧٩.
(٢٤٦) مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٠٧ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٢٤٦ ؛ ابن خلدون: تاريخه، ج ٤، ص ١٢٤؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ١٧٠ ؛ محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة، ص ١٣٩.
(٢٤٧) عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ١٦٩- ١٧٤.
(٢٤٨) محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة، ص ١٤٠.
(٢٤٩)عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ١٧٢؛ السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص ١٢٩؛ مني حسن محمود: المسلمون في الأندلس، ص ١٨٠،١٧٩.

على الداخل وإمارته ويرغبان بالتالي في ولاية الأندلس، في حين كان شارلمان يطمع في الاستيلاء على الأندلس أيضاً وضمّها للإمبراطورية الكارولنجية (٢٥٠).

ونجد أن سليمان بادر بتسليم ثعلبة بن عبيد قائد جيش عبد الرحمن الداخل إلى شارلمان ليكون عنواناً للثقة والتحالف، فسارع شارلمان بسجن ثعلبة بن عبيد في إحدى القلاع الفرنسية قبل تحركه للجنوب، فقد كان حصول شارلمان على ثعلبة بن عبيد لكي يكون رهينة عنده، وهو من خاصة رجال عبد الرحمن الداخل ومن كبار وزرائه، يعد ضربةً كبيرةً لعبد الرحمن الداخل، ورهينةً قيمةً يمكن استغلالها (٢٥١).

وجري الاتفاق بين الثوار و شارلمان على أن يخدر شارلمان بجيوشه إلى شمال إسبانيا عابراً جبالَ البرنيه متجهاً إلى مدينة سرقسطة فيسلمها له سليمان بن يقظان الأعرابي لتكون قاعدة لانطلاق الجيوش الإفرنجية للقضاء على عبد الرحمن الداخل، وفي أوائل الربيع سنة (١٦١هـ/٧٧٨م) تقدم شارلمان على رأس قواته وأتجه إلى مدينة أكتوين حتى وصل نهر الجارون، وهناك قسم جيشه إلى قسمين، قسم يقوده بنفسه، وقرر أن يعبر به جبال البرنيه من جهتها الغربية التي تشرف على مفاوز روفنسال الوعرة، والقسم الثاني تحت قيادة أحد كبار أعوانه، وتقرر أن يعبر البرنيه من جهتها الشرقية، وأن يجتمع الجيشان على ضفاف نهر الإيبرو، أمام مدينة سرقسطة حيث يتم اللقاء مع حلفاء شارلمان من المسلمين(٢٥٢) فتقدم شارلمان نحو مدينة بنبلونة واستولى عليها، ثم سار في اتجاه سرقسطة، فخرج إليه سليمان بن

(٢٥٠) عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ١٧٤؛ السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص ١٢٩.
(٢٥١) ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٢٤٦ ؛ محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة، ص ١٤٢؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص١٧٠.
(٢٥٢) محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة، ص ١٤٣- ١٤٥؛ مني حسن محمود: المسلمون في الأندلس، ص ١٨٠.

يقظان الأعرابي خارج المدينة وسلم إليه بعض الرهائن، كما خرج حاكم مدينة وشقة الذي يدعي أبو ثور بن قسى(٢٥٣) والذي أعلن استقلاله عن إمارة قرطبة، وقدم أخاه وولده رهائن لشارلمان وقد بقيت هذه الرهائن في معسكر شارلمان حتى وقعت النكبة(٢٥٤).

ومما سبق يتضح أن سليمان بن يقظان الأعرابي حريص كل الحرص على إرضاء شارلمان، ويؤكد له بإعطائه الرهائن على حسن نواياه، وحرصه على الفوز بثقته، كما يؤكد هذا الموقف على شدة ارتياب شارلمان وخوفه من المسلمين وأنه يخشى المباغتة لذلك كان حريصاً على أخذ الرهائن، ولم توضحْ لنا الروايات صفات هؤلاء الرهائن الذين قدمهم سليمان بن يقظان الأعرابي، ولم تذكر أهميتهم، على عكس رهائن مدينة وشقة.

ولقد اكتمل جيش شارلمان على مشارف مدينة سرقسطة، التي أمل شارلمان اتخاذها قاعدة لعملياته في إسبانيا معتقداً أن حلفاءه المسلمين سيسلمونها إليه لتحقيقِ أهدافهِ، ولكن أهالي المدينة ساءهم أن تسلم مدينتهم لملك نصراني، وفي نفسِ الوقت دبَّ الخلافُ بين قادة الثورة وحدث شقاق بين الحسين بن يحيى الأنصاري وبين حليفه سليمان بن الأعرابي، حيثُ خشي الحسين بن يحيى عاقبة التورط في حلف النصارى، ونقم موقف الزعامة والصدارة الذي اتخذه سليمان مع الفرنجة، فتخلي الحسين بن يحيى عن حليفه وتحصن في مدينة سرقسطة وأغلق أبوابها ورفض استقبال شارلمان(٢٥٥)، الذي وجد المدينة مغلقة ومتحفزةَ للدفاعِ

(٢٥٣) أبو ثور: لم تذكر المصادر المسيحية التي أوردت الرواية نسب أبي ثور، وأن ابن حزم أورد هذا الإسم ضمن أبناء بني قسى، وأن حكمه لمدينة وشقه يدعم هذا الترجيح، لأن هذه المدينة كانت من قواعد الثغر الأعلى وموطن بني قسي ومركز نفوذهم وسلطانهم منذ أواخر عهد القوط وطوال عصر الإمارة الأموية في الأندلس ؛ كمال السيد: تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامى، ص٨٢، ٨٣.

(٢٥٤) عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص١٧٤؛ محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة، ص ١٤٣- ١٤٥؛ كمال السيد: تاريخ وحضارة الأندلس، ص٨٢، ٨٣.

(٢٥٥) ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٢٤٦ ؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ١٧٤.

والمقاومة، فأخذ شارلمان في مهاجمة المدينة من مواضع مختلفة، ولكن المدينة صمدت وردت كل هجماته، ولم يستطع سليمان أن يقدم أي مساعدة لشارلمان الذي بدأ يرتاب في نيته وخشي أن يكون ضالعا في مؤامرة ضده، فبادر بالقبض عليه وأخذه معه إلى بلاده (٢٥٦)

ولم يغامر شارلمان في الدخول في معارك حربية في تلك الجهات، وظل محاصراً المدينة فترة ثم بدأ يرتد عنها نحو الشمال الشرقي وذلك في شهر شوال سنة (١٦١هـ/ يوليو٧٧٨م)، عندما بلغته أنباء هامة من بلاده عن قيام قبائل السكسون بالثورة فارتد شارلمان على رأس قواته وفي ركابه سليمان أسيره وعدد من الرهائن وسار شمالاً نحو بلاد البشكنس، وكان النافاريون في تلك الأثناء قد جمعوا فلولهم، واعتزموا الدفاع عن حاضرتهم بنبلونة، وقد شجعتهم وقفة سرقسطة وصاحبها الحسين ضد الملك الإفرنجي، ولكن شارلمان هاجم مدينة بنبلونة بعنف، ولم تجد بسالة النافاريين وحلفائهم المسلمين شيئاً، فتركوا المدينة وتفرقوا في مختلف الأنحاء واستولى شارلمان على بنبلونة للمرة الثانية، وهدم حصونها وأسوارها حتى لا تعود إلى المقاومة إذا عاد إلى تلك الأنحاء، ولكي يمهد لجيشه طريق العود المأمون إلى فرنسا(٢٥٧).

وبينما كان شارلمان يعبر مع جنوده من ممر رونسفال في جبال البرتات حلت عليه الكارثة، إذ هاجمته قوة مؤلفة من البشكنس انضم إليهم الكثير من المسلمين على رأسهم ابنا سليمان بن يقظان: مطروح وعيشون بغرض فك أسر والدهما، وكانت هذه القوة مدعمة بتأييد وعون عبد الرحمن الداخل، الذي لابد وأن أمدها بالمال والسلاح ونجحت هذه القوة في القضاء

(٢٥٦) ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٢١٣؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص١٧٤؛ محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة، ص ١٤٣- ١٤٥؛ كمال السيد: تاريخ وحضارة الأندلس، ص٨٢، ٨٣.

(٢٥٧) عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ١٧٦؛ محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة، ص ١٤٨، ١٤٩.

على مؤخرة جيش شارلمان، وفي استنقاذ سليمان والرهائن الذين اتخذهم شارلمان والعودة بهم إلى سرقسطة، وغنموا مغانمَ كثيرةً (٢٥٨).

ولكن ما هي أسباب الكارثة التي حلت على شارلمان عند ممر رونسفال؟

نجد أن أسبابها رغبة المسلمين وأبناء سليمان استنقاذ أبيهم الأسير من قبل شارلمان، واستنقاذ الرهائن الذين أعطاهم سليمان بن يقظان لشارلمان، وهذا دليلٌ كبيرٌ على أن الرهائن الذين أعطاهم سليمان بن يقظان الأعرابي كانوا على قدرٍ كبير من الأهمية لذلك تحركت جموع كثيرة من المسلمين لمهاجمة شارلمان، ولو كان الأمر غير ذلك لفرح المسلمون بانسحاب شارلمان دون تحقيق أغراضه، ولكن هؤلاء الرهائن كانوا على قدر كبير من الأهمية.

هذا من جانب أما من جانب البشكنش فقد كانوا حانقين على شارلمان وجيشه بعد أن أحدث الخراب والدمار ببلادهم وخرب عاصمتهم بنبلونة، وأنزل بهم أشد أنواع التنكيل، بل إنهم كانوا أكثر حماسة لهزيمة شارلمان وتلقينه درساً قاسياً حتى لا يعود الكرة عليهم من جديد، فالتقي الطرفان عند الرغبة الجامحة في الانتقام من شارلمان، وتؤكد الأحداث أن كل طرف كان بحاجة إلى الطرف الآخر، فقد احتاج المسلمون إلى معرفة البشكنش الدقيقة بتلك الشعاب والممرات الوعرة، وكان البشكنش بحاجة إلى مقدرة المسلمين في التنظيم العسكري، ودقتهم في رسم الخطط والهجوم، لذلك التقيا في إنزال الهزيمة بجيش شارلمان(٢٥٩).

فالرغبة في استخلاص الرهائن من يد شارلمان جعلت المسلمين يحرصون على المغامرة وتكبيد جيش شارلمان أشد الخسائر، حيث تم القضاء نهائيا على مؤخرة جيش شارلمان، وتم

(٢٥٨) محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة، ص١٥١؛ مني حسن محمود: المسلمون في الأندلس، ص ١٨٠.
(٢٥٩) محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة، ص١٥٥،١٥٤.

الاستيلاء على المغانم وفي مقدمتها الخزينة الملكية، وقتل عدد كبير من سادة الجيش الفرنجي (٢٦٠). وهذا يدل على أن هدف المسلمين هو استنقاذ رهائنهم، وفك أسر سليمان بن يقظان الأعرابي.

ونجد أن هجوم المسلمين بشأن استنقاذ رهائنهم، وفك أسر سليمان بن يقظان الأعرابي بدد حلم شارلمان في إزالة السيادة الإسلامية عن إسبانيا، وتكوين إمبراطورية على النسق الروماني، فلولا الرهائن والأسير لما تحركت جموع المسلمين واتفقت مع البشكنش لمهاجمة جيش شارلمان.

الهزيمةُ التي تعرض لها شارلمان وما حدث فيها من أحداث جعلته لا يفكر في معاودة الهجوم مرة أخرى، وخصوصاً لاضطراب الأحوال الداخلية في الإمبراطورية الكارولنجية ذاتها، حيث استنفذَ السكون جانباً كبيراً من جهوده، فكان بحاجة ماسةٍ للسلام مع جيرانه، وخصوصاً عندما تأكد من صلابة عبد الرحمن الداخل (٢٦١).

ولكن ما هو مصير ثعلبة بن عبيد الجذامي الذي اتخذه شارلمان رهينة عنده؟

بعد تبدد أحلام شارلمان وتعرضه لهزيمة كان لها صدي واسع في الأوساط الأوربية والمسيحية(٢٦٢) لم يبق بيد شارلمان سوي ورقة واحدة رابحة قد يعوض بها جزءاً من خسارته وهي ورقة ثعلبة بن عبيد الجذامي الذي ظل مرهونا عند شارلمان حتى جرت المفوضات بشأنه مع المسلمين، وأطلق سراحه بعد أن دفعَ فديةً كبيرةً (٢٦٣).

(٢٦٠)عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ١٨٠ ؛ محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة، ص١٥٥.
(٢٦١) محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة، ص٢٢٤، ٢٢٥.
(٢٦٢) محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة، ص ١٥٦.
(٢٦٣) محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة، ص١٥٨.